محدِّث الديار الشامية

الأستاذ الدكتور نور الدين عتر

د. راوية نور الدين عتر

جامعة دمشق - سوريا

ملخص

هذا البحث المتواضع، يقدم ترجمةً موجزةً مختصرةً للأستاذ العلامة المحدث الدكتور نور الدين عتر، رحمه الله تعالى، تحدثت فيه عن نسبه، ومولده، ونشأته، وهمته العالية التي بذلها في طلب العلوم الشرعية في حلب والقاهرة، وعن أهم شيوخه الذين أخذ عنهم، وبينت الأعمال الرفيعة التي أكرمه الله تعالى بها بعد نيله للعالمية (الدكتوراه) من جامعة الأزهر الشريف، وأوضحت السمات المميزة العديدة لدروسه ومحاضراته العلمية الحافلة بالعلم والتزكية والأدب، وما اتصف به من أخلاقٍ محمديةٍ، كما تحدثت عن أهم خصائص مسيرته العلمية التي تميزت بنهضةٍ علميةٍ مبتكرةٍ في علوم الإسلام، لاسيما في علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

الكلمات المفتاحية: نور الدين عتر، ترجمة، مسيرة، جهود.

Bilâdüşşâm'ın Muhaddisi Prof. Dr. Nureddin Itir
Dr. Râviye Nureddin Itir
Özet

Bu mütevazı çalışmada, Üstad Allâme Muhaddis Dr. Nûreddin Itir'ın özlü ve muhtasar terceme-i hâlini sunulmaktadır. Yazar, Itr'ın nesebi, doğumu, yetişmesi ve Halep ile Kâhire'de şer'î ilimler tahsili için sarf ettiği gayretten, kendilerinden istifade ettiği ulema ile irtibatından bahsetmekte, Ezher Üniversitesi'nden doktora derecesini almasının akabinde yaptığı kıymetli çalışmalara dikkat çekmektedir. Ayrıca, Itir'ın, edep, tezkiye ve ilimle müzeyyen, Muhammedî ahlâkla muttasıf ilmî konferansları ile derslerinin mümtaz çehresini aktarmaktadır. Bunların yanı sıra, onun, İslâmî ilimlerde, özellikle Kur'ân ilimleri ile hadis ilminde yeni bir ilmî usulle temayüz eden ilmî hayatının ehemmiyetinden bahsetmektedir.

Anahtar Kelimeler: Nureddin Itir, terceme-i hâl, gayret-i diniyye.

The scholar of Hadith in the Levant PHD Nur al-Din Atr
Dr. Rawia Noureddine Ater
Abstract

This modest research presents a brief, concise translation of the professor, the scholar of hadith, Sheikh Dr. Nur al-Din Atr, may Allah have mercy on him.

The researcher talks about his lineage and birth.

His great interest in the demand for science in Aleppo and Cairo

She talks about his relationship with the most important sheikhs from whom he learnt, may Allah the Almighty have mercy on them all.

The researcher explains the high-level works that Allah the Almighty honored him with after obtaining a doctorate from Al-Azhar University. She explains the many distinguishing features of his scientific lessons and lectures, that are full of science, purification, and politeness by mentioning what he was characterized by of perfect, dignified, good and Muhammadan morals.

She also talks about the most important characteristics of his scientific career, which was characterized by an innovative scientific renaissance in the sciences of Islam especially in the sciences of the Noble Qur'an and the Prophet's Hadith.

Keywords: Noureddine Ater, His translation, mission, march and efforts.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي حفظ هذا الدين على تعاقب الأيَّام والسنين، وأيَّد حجَّته ورفع منارته بما وفَّق إليه أئمَّة العلم العاملين، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمَّا بعد: فهذا موجز مختصر لترجمة رجل لا كالرجال، صمت عن ذكر نفسه وتحدَّث عنه عمله، تملَّك حبُّ الله ورسوله عقلَه وروحَه منذ منشئه، فكان أحبَّ لقب إليه (خادم القرآن والحديث) وهو العلَّامة، المحدِّث، المفسِّر، المتقن، المتفنِّن، القدوة، سليل بيت النبوَّة، ومعدن الأخلاق والفتوَّة، **سيِّدي الوالد الدكتور نور الدين عتر** رحمه الله تعالى ورضي عنه وأرضاه، الذي نبغ في علم الحديث الشريف خاصَّة فصار فيه إمامًا؛ حتَّى إذا قيل (**محدِّث الديار الشامية**) كانت هذه الكلمة كناية عنه، لا تنصرف إلَّا إليه.

وإنَّ الكتابة عن هذا العالم الجليل العلَّامة الشيخ الكريم بالنسبة لي بمثابة من يستخرج أجزاء من روحه ويصوغها كلمات على الورق؛ فهي عمَّن توجَّه قلبي له بحبِّ النسب، وحبِّ السبب، وحبِّ الفطرة، والحبِّ في جلال الله تعالى؛ ولكن لا بدَّ من إبراز شيء عن حياة هذا العالم الربَّانيِّ الوليِّ العرفاني ليتأسَّى به، ويقتدى بفعاله، وهذا المقال مختصر عن حياته العامرة بالإيمان والعلم والعرفان.

النسب والمولد

ينتهي نسبه إلى الشرف المؤبَّد بالنسبة إلى سيِّد الوجود سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، **فأبواه كلاهما ينتسبان إلى سيِّد الأنام عليه الصلاة والسلام**؛ آل (عتر) ينتسبون إلى سيِّدنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من جهة سبطه وريحانته سيِّدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما، وأهل والدته آل (سراج الدين) ينتسبون إلى سيِّدنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من جهة سبطه وريحانته سيِّدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما، آتاه الله تعالى شرف النسب والنسبة والسبب فهنيئًا له.

في يوم الأربعاء السَّابع عشر من صفر ١٣٥٦هـ، الموافق للثَّامن والعشرين من نيسان ١٩٣٧م، في مدينة حلب الشهباء، أبصر سيِّدي الوالد النور، فبعد وفاة طفلتين رضيعتين، ثمَّ ولادة ثالثة، رزق الله تعالى العبد الوليَّ الصالح الشيخ محمَّد عتر وزوجه الصالحة الذاكرة التقيَّة الحاجَّة درِّيَّة سراج الدين، مولودًا ذكرًا سمَّاه جدُّه لأمِّه سيِّدي الإمام فريد زمانه العلَّامة الشيخ نجيب سراج الدين[1] (نور الدين)؛ فكان فألًا حسنًا حقَّقته مشيئة الله تعالى في تلك البيئة المتفرِّدة.

كان ذلك البيت الذي نشأ فيه سيِّدي الوالد من نخبة بيوتات الدنيا طهرًا ونقاءً وتقًى وصلاحًا وعلمًا وعملًا، وكان عميد أسرة عتر ذات النسب الشريف والسمعة الحسنة الذي أرسى قواعد القيم الدينية والروحية فيها **هو الحاجُّ حسن عتر رحمه الله تعالى ورضي عنه، وهو جدُّ الدكتور نور الدين لأبيه،** وقد كان -كما يصفه والدي- من أذكياء الدنيا، ديِّنًا تقيًّا ورعًا، محبًّا للعلم وأهله ومشتغلًا به، وتاجرًا صيِّتًا معروفًا كريمًا، وكان الحاجُّ حسن عتر من خواصِّ تلاميذ العلَّامة الشيخ نجيب سراج الدين، ملازمًا له متخرِّجًا به، وقد أكسبته ملازمته إيَّاه مكنة في العلوم الشرعية، وكان من شأنه كما أخبرنا سيِّدي الوالد أنَّه عندما يزور مدينة حلب عالم من مدينة أخرى فإنَّه يحتفي به ويكرمه، ويقيم وليمة بحضور العلَّامة الشيخ نجيب سراج الدين، ويطرح الحاجُّ أو الشيخ حسن أسئلة علمية دقيقة؛ وذلك لتحصل الإفادة من علم الزائر من جهة، وليظهر فضل الشيخ نجيب وميزته من جهة أخرى، رحمهم الله أجمعين.

توثَّقت الصلات بين الحاجِّ حسن عتر رحمه الله وشيخه العظيم الشيخ نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى بالمصاهرة المباركة، فزوَّج الشيخ نجيب سراج الدين ابنته الوحيدة الحاجَّة درِّيَّة للابن الأكبر للحاجِّ حسن عتر، وهو التقيُّ النقيُّ الحاجُّ محمَّد عتر، وأثمر هذا الزواج المبارك ذرِّيَّة طيِّبة مباركة، سمَّاها كلُّها سيِّدي الشيخ نجيب، كان باكورتها من الإناث ابنتان توفِّيتا في الطفولة المبكِّرة، تلتهما عائشة

١ كان الشيخ أوحد زمانه في علوم الشريعة والحقيقة، وقد صحَّ عن الشيخ بدر الدين الحسني قوله: إنَّ الشيخ نجيب أعلم أهل الأرض في زمانه.

(مواليد ١٩٣٤م)، ثمَّ سيِّدي الوالد.

والد الدكتور نور الدين عتر الشيخ محمَّد عتر: كان رجلًا عظيمًا من أفراد زمانه في العلم والعمل والتقى والورع، وكان من أعيان تجَّار حلب، اشتُهر بالأمانة والصيانة وإتقان العمل، حتَّى صار مضرب مثل، تتلمذ على يد علماء زمانه، وبشكل خاصٍّ على يد العلَّامة الشيخ نجيب سراج الدين، ثمَّ صار ختنه، وكان صوفيًّا بحقٍّ، أجيز بالطرق الصوفية كلِّها، وكان شيخ الطريقة الرشيدية في حلب، وكان دائم التفقُّد لأرحامه يساندهم مادِّيًّا ومعنويًّا، كثير العفو والصفح عمَّن يسيء إليه، مع الإكثار من الذكر والتعبُّد، وكان له أثر كبير في تربية سيِّدي الوالد وتوجيهه؛ بل إنَّه عندما أكرمه الله تعالى بولادة ابنه البكر «سيِّدي الوالد» نذره من وقتها لخدمة العلم الشرعي، فتقبَّله ربُّه بقبول حسن، وأنبته نباتًا حسنًا، وكان ما كان من إكرام الله له بالعلم النافع، توفِّي الحاجُّ محمَّد عتر عام ١٩٨٤م، رحمهم الله أجمعين.

والدة الدكتور نور الدين عتر: السيِّدة الفاضلة التقيَّة النقيَّة **الحاجَّة درِّيَّة سراج الدين**، البنت الوحيدة للعلَّامة الشيخ نجيب سراج الدين، كانت رحمها الله تعالى من أفذاذ النساء في التديُّن والتقى والتعبُّد والصلاح، كثيرة التعبُّد والذكر، تختم القرآن الكريم كلَّ ثلاث، إلَّا آخر سنين من عمرها فإنَّها صارت تختمه كلَّ أسبوع، ولها صفة بين النساء نادرة وهي حفظ اللسان، فلا تغتاب أحدًا، وإن ضاق بها الأمر لإيذاء أحد لها فإنَّها لا تذكره بعينه ولا اسمه، بل تقول: «هناك جماعة..» وتكمل الواقعة كيلا تقع في الغيبة المحرَّمة، وكان لها دور كبير في إذكاء الحماس ورفع همَّة أولادها لأجل طلب العلم، وشجَّعتهم على السفر لأجل هذا الهدف النبيل في تلك الحقبة الزمنيَّة التي كان السفر فيها شاقًّا، كما شجَّعت سيِّدي الوالد على عمله في جامعة دمشق رغم أنَّه سيكون بعيدًا عنها في حلب، طال في العمل الصالح عمرها، فتوفِّيت عن المائة عام أو يزيد عام ٢٠١١م.

في هذا الجوِّ الإيماني الرفيع والمناخ العلمي العالي نشأ سيِّدي الوالد وتفتَّحت مواهبه، وتحدَّد طريقه واستقام نهجه، فاجتمعت لديه رفعة النسب ورفعة الهمَّة؛ حتَّى بلغ ما بلغه.

نشأته وطلبه للعلم

بدت على الشيخ منذ طفولته الأولى مخايل النجابة والتميُّز والنبوغ، فكان حادَّ الذهن، وقَّاد الذكاء، سريع الحفظ، إضافة إلى اتِّزانٍ وتؤدةٍ ووقارٍ قلَّما يرافق الصغار، ممَّا يذكِّرنا بطفولة الإمام النووي رضي الله عنه؛ بل إنَّه منذ طفولته كان ينشر العلم، مذ كان في المدرسة الابتدائية يعلِّم أخته الكبرى «السيِّدة الفاضلة عائشة» القراءة والكتابة وكلَّ ما يتلقَّاه من العلوم؛ لأنَّهم وقتذاك ما كانوا يسجِّلون البنات في المدارس إلَّا قليلًا؛ لقلَّة عدد المدارس وأسباب اجتماعية أخرى ممَّا ساهم في تفشِّي الأمِّيَّة في المجتمع، فكان دوره في محيطه بارزًا منذ الطفولة الأولى.

اتَّسمت مسيرته الدراسية المبكِّرة بالتفوُّق والتميُّز، فكان دائمًا حائزًا على الرتبة الأولى في دراسته، مع سمات شخصيَّة أهَّلته ليكون محطَّ نظر النخبة.

بعد دراسته الابتدائية أتمَّ دراسته الإعدادية والثانوية في الثانوية الشرعية (الخسروية) التي خرَّجت كبار العلماء وقتذاك، وبدأ تكوينه العلمي ينضج من وقتها، فالمقرَّرات من المتون العلمية القديمة، والتدريس عالي المستوى، موافقٌ لما كان عليه سلفنا، والأساتذة كبار العلماء، وقد كان لهذا كلِّه مع ما حباه الله تعالى من الاستعدادات الفطريَّة أثرٌ كبيرٌ في تكوينه العلمي.

وممَّا يعدُّ أمرًا فريدًا أنَّ سيِّدي الوالد في عامٍ واحدٍ قدَّم امتحانات الثانوية الشرعية والثانوية العامَّة الفرع العلمي، وتفوَّق في كليهما، ممَّا يدلُّ على تشعُّب مواهبه وتنوُّع ملكاته.

ولمَّا أتمَّ دراسته المدرسية كان دور البيئة النقيَّة النادرة التي نشأ فيها بارزًا جدًّا؛ فالمجتمع عامَّة يرفض فكرة إتمام الدراسة في الجامعة لأسباب مختلفة، منها أنَّه لا بدَّ من السفر خارج سوريا إذ لم تكن ثمَّة كلِّيَّة للشريعة فيها، ومنها ما كان عليه الحال في مصر وقتذاك من اضطرابات سياسية، ومنها أنَّ والده بالإضافة لعلمه وتقواه تاجر معروف رائجة تجارته، وأيضًا كان راتب الموظَّف بالثانوية ضخمًا

جدًّا آنذاك، فلِمَ التعب والعناء الذي لا مبرِّر له بنظرهم! وكثيرًا ما كان يقال له: «ما تبتغي بدراستك هذه؟ وماذا سوف يكون عملك؟ مغسِّل للأموات مثلًا!» إلى غير هذا من عبارات التثبيط والحطِّ من العزائم، لكنَّها لم تفتّ في عضده، ولم تؤثِّر في رغبته ولا رغبة والده ووالدته الكريمين، وكان الهدف السامي الذي نذره له والده قبل ولادته واستقرَّ في نفسه وأخلص له أقوى من كلِّ تلك المثبِّطات والمعيقات، وهذا من عناية المولى سبحانه وتوفيقه.

في الأزهر الشريف

الأزهر الشريف معقل العلوم الشرعية، كان محطَّ ذلك الشاب الهمام الطموح، وكان له موضع من أساتذته الأجلَّاء شيوخ الأزهر وعلمائه لما رأوه فيه من مخايل النجابة والجدِّ والتقى، وقد سار نحو هدفه بإخلاص أهل الكمال وعزيمة كالجبال، ولم يتغيَّب عن محاضرة قطُّ، حتَّى إنَّه كان إذا تغيَّب الطلَّاب كلُّهم لظروف قاسية صعبة يكون هو الوحيد الذي يحضر المحاضرة، ذكر ذلك العلَّامة الشيخ محيي الدين عبد الحميد رحمه الله تعالى في تقديمه لأطروحة الدكتوراه.

أمَّا عن همَّته في طلب العلم فكانت كهمَّة الظمآن يطلب ماءً لا يفتر حتَّى يجد بغيته، ولكنَّ طالب العلم الحقَّ لا يفتأ يطلب بغيته دونما انقطاع لأنَّ العلم بحره ما له قرار، فكان دائم الاشتغال بالعلم والتحصيل والانتفاع؛ بل إنَّه أخبرني أنَّ أيَّام الامتحانات كانت أيَّام النزهة والترفيه؛ لأنَّه قد سبقها الجدُّ والاجتهاد البالغ في التحصيل، ومن الأماكن التي زارها بغية تجديد النشاط آنئذ حديقة الحيوانات المعروفة في القاهرة، ولا عجب في هذا الإقبال العجيب على طلب العلم الشريف؛ لأنَّ هذا الطالب الشريف سليل بيت النبوَّة كان والده يتعاهده كلَّ فترة برسائل تشدُّ من أزره وترفع همَّته لمعالي الأمور، من ذلك رسالة هي عبارة عن صورة لجدِّ سيِّدي الوالد لأمِّه العلَّامة العارف الشيخ محمَّد نجيب سراج الدين الحسيني، وعلى وجهها الخلفي كتب هذه العبارة: «اذكر أنَّك حفيد هذا الشهم العظيم، والوارث المحمَّدي الكبير، واشكر الله على ذلك فإنَّه بالشكر يزيد الله النعم» كلمات قليلة، ولكنَّها تذكي الحماس وترفع الهمَّة على أتمِّ وجه، رحمهم الله جميعًا وجزاهم خيرًا.

حاز الليسانس عام ١٩٥٨م، وكان الخرِّيج الأوَّل في دفعته، وكان في كلِّ سنيِّ دراسته ذا الرتبة الأولى، وأتمَّ الدراسات العليا في الأزهر الشريف إلى أن حاز الشهادة العالمية «الدكتوراه».

لم تكن هذه الفترة في مصر مجرَّد إتمام للدراسة؛ بل كانت قطعة مباركة من الزمن استثمرها الشيخ على أفضل ما يمكن للمرء في التعلُّم والتعليم، والنفع والانتفاع، والعلم والعمل، والأخذ والعطاء، دائم النصح لكلِّ من يأتي الأزهر من سوريا وما جاورها، يمدُّ يد العون لهم بكلِّ ما يمكنه مادِّيًّا ومعنويًّا؛ لذلك اختاره مشايخ الأزهر ليكون **شيخ «رواق الشوام»** يتولَّى أمور كلِّ الطلبة الآتين من بلاد الشام كافَّة، كان جديرًا بذلك وأهلًا له، وكم سمعنا منه وقائع في إرشاد زملائه وإعادتهم إلى جادَّة الصواب إن حادوا عنها.

كُلِّلت مسيرته الدراسية بالنجاح الباهر، فحاز الشَّهادة «العالِمية من درجة أستاذ (الدُّكتوراه)»، من شعبة التَّفسير والحديث عام ١٩٦٤م بجامعة الأزهر بتقدير **ممتاز مع الشرف،** حيث قدَّم أطروحته: «طريقة الترمذي في جامعه، والموازنة بينه وبين الصَّحيحين»، والتي تعدُّ نموذجًا فريدًا من حيث المضمون والمنهج؛ وكانت بشهادة علماء الأزهر باب فتح جديد في الدراسات الحديثية؛ **فهو أوَّل من استفتح الكلام** في الصناعة الحديثية ومناهج الأئمَّة، وكذلك الدراسات المقارنة من المعاصرين، وقد استأذن مشرفه العلَّامة الجليل محيي الدين عبد الحميد في استشارة العلماء الأجلَّاء الشيخ محمَّد السماحي والشيخ مصطفى مجاهد في خطوات عمله؛ فأذن له الشيخ، وكان من إعجاب الشيخ السماحي بإتقانه لعمله أنَّه أخبره أنَّه يستحقُّ الشهادة بجدارة عن أحد الفصول في هذه الرسالة؛ بل إنَّ طريقته المبتكرة في التبويب فيها كانت فتحًا علميًّا، وغدت طريقة كثير من الباحثين بعده، **وهو شابٌّ لم يتجاوز بعدُ السَّابعة والعشرين من عمره،** وكان وقتذاك **أصغر طالب يحوز رتبة العالمية،** وبقي الأمر كذلك مدَّةً طويلة، ولا أدري هل بقي الأمر كذلك إلى الآن أم لا.

أساتذته

من تمام إكرام الله عزَّ وجلَّ لسيِّدي الوالد أن هيَّأ له أساتذة من نخبة العلماء العاملين الأولياء الصالحين الذين تشعَّبت علومهم وبرعوا في جميع مجالاتهم في العلوم الشرعية وعلوم العربية، ومن أبرزهم:

في سوريا: الشَّيخ محمَّد السَّلقيني، والشَّيخ راغب الطَّبَّاخ، والشَّيخ عبد العزيز عيون السُّود، وغيرهم.

في مصر: العلَّامة الشيخ (مصطفى مجاهد) البصير، وكان والدي يكلِّمنا عن كرامات الشيخ، ومنها مكاشفاته الكثيرة، وكان يخصُّ سيِّدي الوالد بعظيم الاهتمام والحفاوة، والنصح والإرشاد، من ذلك مثلًا أنَّه يوم مناقشته للدكتوراه لقيه أحد أرباب الأحوال فقال له ما معناه أنَّه سوف يُغبن في المناقشة، فدخل والدي مغتمًّا على الشيخ، فعرف الشيخ ما جرى، وأرشده ألَّا يأبه لكلام ذلك الشخص، وبشَّره بالتوفيق العظيم وكان كما قال، وبالجملة فقد كان بينهما عظيم المودَّة والتقدير، وكان الشيخ يهتمُّ بسيِّدي الوالد وأموره كلِّها بالغ الاهتمام، ويسأله عن عائلته وشؤونه، ومن مكاشفاته أنَّه بشَّره بزواجه من ابنة خاله وشيخه الحسيبة النسيبة سيِّدتي الوالدة، ووفاءً للشيخ سمَّى والدي ابنه الأكبر أخي محمَّد مجاهد باسم شيخه، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم.

ومنهم: العلَّامة الشيخ محمَّد محيي الدين عبد الحميد ذو اليد الطولى في خدمة كتب اللغة العربية وتوسيع النفع بها، العالم المتبحِّر العامل، عميد كلِّيَّة الدراسات العربية، وعضو مجمع اللغة العربية، وهو مشرفه في أطروحة الدكتوراه.

ومنهم: الشيخ محمَّد السماحي، والشَّيخ الدكتور محمَّد محمَّد أبو شهبة، والشَّيخ الدكتور محمَّد محمَّد السَّماحي، والشَّيخ عبد الله الجزَّار، والشيخ عبد الوهَّاب البحيري، والشيخ عبد الوهَّاب عبد اللطيف، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم.

إلَّا أنَّ صاحب الأثر الأكبر في توجيهه هو جدي لوالدتي، العلَّامة الشهير والعالم

الجليل **الشيخ عبد الله سراج الدين** وهو خاله ووالد زوجته كذلك، وقد ترجم له سيِّدي الوالد في كتابه «صفحات من حياة الإمام شيخ الإسلام الشيخ عبد الله سراج الدين»، والصلة بينهما أنموذج تاريخي للبرِّ والوفاء.

عمله في التدريس: كانت فترة الصبا والشباب التي قضاها الشيخ ساعيًا لمعالي الأمور، باذلًا الوقت والوسع، مخلصًا لله تعالى، كانت فترةَ تأسيسٍ لعالمٍ عظيمٍ امتدَّ عطاؤه عقودًا من الزمن، وانتفع به طلَّاب العلم أيَّما انتفاع، فبعد حصوله على الدكتوراه عاد لسوريا مباشرة، فدرَّس في المرحلة الثانوية لفترة يسيرة، ثمَّ عُيِّن مدرِّسًا لمادَّة الحديث النَّبويِّ في الجامعة الإسلامية عام ١٩٦٥م إلى عام ١٩٦٧م، في المدينة المنوَّرة، على ساكنها أفضل الصَّلاة وأتمُّ السَّلام، **ليكون أيضًا أصغر مدرِّسٍ في العمر فيها**، وكان سفره للعمل في المدينة المنوَّرة بإشارة من سيِّد الأنام عليه الصلاة والسلام؛ إذ استخار والده الشيخ محمَّد ربَّه في ذلك،[1] فرأى النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول له: «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون»، فأشار على والدي بالسفر فورًا، فسافر وعمل هنالك مدَّة سنتين في طيبة الطيبة، وكان عندما يتحدَّث عن ذلك يقول: «فنحن نعيش في بركة هاتين السنتين حتَّى الآن» وعيناه تذرفان.

ثمَّ عاد إلى دمشق عام ١٩٦٧م، وعُيِّن أستاذًا مدرِّسًا في كلِّيَّة الشَّريعة بجامعة دمشق، وترقَّى لرتبة أستاذ عام ١٩٧٩م، ثمَّ أصبح رئيسًا لقسم علوم القرآن والسنَّة لعقود من الزمن، وظلَّ مدرِّسًا حتَّى بعد التقاعد، ولم يقعده عن التدريس إلَّا اشتداد المرض عام ٢٠١٩م، كما درَّس مادَّتي الحديث والتفسير في جامعات عربية وإسلامية كثيرة، وغيرهما من المعاهد والجامعات الشرعية، كفرعَي جامعة الأزهر وجامعة أمِّ درمان الإسلامية الواقعتَين في دمشق، إضافة إلى كلِّيَّة الدعوة الإسلامية الليبيَّة فرع دمشق، وهو عميد كلِّيَّة أصول الدين في جامعة بلاد الشام فرع مجمَّع الفتح الإسلامي.

ولكنَّ سيِّدي الوالد رحمه الله ورضي عنه كان يريد ألَّا ينحصر نور الوحي

١ كان السلف الصالح بورعهم يخشون الإقامة هنالك لأجل إعطاء ذلك الجوار المبارك حقَّه.

ضمن المعاهد الشرعية وكلِّيَّة الشريعة؛ بل كان يرى أنَّ قسمًا كبيرًا من مناهج كلِّيَّات الشريعة هو فرضُ عينٍ على كلِّ مسلم أن يتعلَّمه، ولتعميم الهدي النبويِّ التزم الشيخ بالتدريس محاضرًا في قسم اللغة العربية بكلِّيَّات الآداب في دمشق وحلب، وأنشأ لهما منهجًا خاصًّا لمادَّتين هما: «القرآن الكريم والدراسات الأدبية» و «الحديث الشريف والدراسات الأدبية»، ودامت فترة تدريسه في كلٍّ منهما سنوات طويلة، إلَّا أنَّ اللافت في الموضوع أنَّ الشيخ كان يسافر أسبوعيًّا إلى حلب لهذه الغاية ليمكث هنالك يومًا واحدًا يدرِّس فيه طلَّاب اللغة العربية، ثمَّ يعود إلى دمشق، وعندما نتذكَّر أنَّ الطريق بين المدينتين يستغرق خمس ساعات ذهابًا ومثلها إيابًا، واستمرَّ ذلك السفر الأسبوعي أكثر من عشرين عامًا مع أعباء قسم علوم القرآن والسنَّة في دمشق يتبيَّن عند ذلك مدى العبء الذي ألزم الشيخ به نفسه رعاية للغة العربية لغة القرآن الكريم، وقيامًا بواجب علوم الآلة التي لا بدَّ منها لتأسيس طالب العلم الشرعي، وإظهارًا لوحدة العلوم الشرعية مع علوم اللغة العربية، فجزاه الله خير الجزاء، وكانت بوادر القبول الربَّانيِّ لعمله هذا بإذن الله واضحة، فكان هنالك إقبال عظيم من طلَّاب اللغة العربية على دروس الشيخ، وعمَّ نفعها، والذين درسوا على يديه في كلِّيَّة الآداب يخبرون أنَّهم استفادوا من محاضراته في النحو والبلاغة والصرف وغير ذلك من فنون العربية فوائد عظيمة؛ بل كان على يديه تأسيسهم العلمي فيها، فسبحان الوهَّاب ذي المنن.

ولأجل الهدف نفسه -وهو تعميم النفع بالعلم- كان سيِّدي الوالد لبرهة من الزمن خطيبًا للجمعة في جامع الشِّيط بسيف الدَّولة بحلب، ومدرِّسًا في عدَّة مساجد في دمشق وحلب، آخرها دروسه العلمية في الجامع الأموي الكبير بدمشق، كما سوف أفصِّل لاحقًا.

استمرَّ تدريسه في كلِّيَّة الشريعة بجامعة دمشق أكثر من خمسين عامًا، من عام ١٩٦٧م إلى عام ٢٠١٩م، وقد تخرَّج على يده آلاف المدرِّسين، منهم نخبة متميِّزة من العلماء والأساتذة، كما عمل خبيرًا مختصًّا لتقويم مناهج الدراسات الجامعية الأولى ومناهج مرحلة الدراسات العليا في كلِّيَّات الشريعة في جامعات متعدِّدة في

العالم الإسلامي، وقد أشرف على أكثر من ٥٠ رسالة دكتوراه و١٠٠ رسالة ماجستير، وكان محكِّمًا لبحوث الترقية لمدرِّسي الجامعات في سوريا وغيرها، وكثيرًا ما كانت تُرسَل إليه البحوث من دول متعدِّدة، وعُرِف بدقَّته الشديدة في تحكيمه، لذلك كانوا يصرُّون على اختياره رغم كثرة أعبائه.

من مِيزات محاضراته ودروسه

كانت محاضراته في الجامعات أو دروسه في المساجد روضة من رياض الجنَّة الحافلة بالعلم والأدب والتزكية، يتجلَّى فيها النفع العلمي والأخلاقي والروحي في آنٍ واحد،، ومن أهمِّ سماتها:

• الثراء العلمي: كانت كل محاضرة له وكلُّ درس مائدة من موائد العلم العامرة بألوان صنوف العلوم المختلفة الشرعية والعربية، ففيها ما يتعلَّق بالحديث والتفسير والفقه والعقيدة والتزكية والتصوُّف والبلاغة والنحو إلى ما هنالك، فعلى سبيل المثال من درسوا على يديه في كلِّيَّة الآداب قسم اللغة العربية يقرُّون أنَّهم استفادوا من محاضراته في علوم النحو والصرف والبلاغة؛ بل إنَّهم تمكَّنوا في قواعدها الأساسيَّة وفروعها المختلفة بفضل الحضور عنده، رغم أنَّ مادَّته الأساسيَّة تتعلَّق بالتفسير والحديث وعلومه؛ لكنَّه سار على نهج السلف الصالح في ذلك.

• الروحانية العالية: عاش سيِّدي الوالد حياته مستحضرًا رقابة المولى الجليل سبحانه وتعالى، وكان التعليم عنده رسالة عظيمة ومهمَّة جليلة، وُعِدَ عليها بالأجر العظيم من ربِّ العالمين، وهي من إرث سيِّد المرسلين، الذي به يتمُّ إصلاح شباب المسلمين، لذلك كان في محاضراته ظاهر الخشوع، بادي التأثُّر، حاضر الدمعة، يشعر الحاضر فيها بروح الحبِّ لله ورسوله، وسمة العبوديَّة للحقِّ عزَّ وجلَّ التي كست تلك المحاضرات، فيفيد من الحال والمقال أيَّما فائدة.

• التعليم بالحال قبل المقال: إنَّ ما يتعلَّمه الطالب من حال أستاذه أرسخ في النفس وأعظم أثرًا ممَّا يتعلَّمه من أمره ونهيه، ولا يبلغ الأستاذ مبلغ التعليم

بالحال إلَّا إن كان من كُمَّل العلماء الربَّانيين المتوجِّهين بكلِّيَّتهم لربِّ العالمين، فكان إخلاصه لربِّه سبحانه، وحبُّه لله ورسوله، وصلاحه وتقواه، كالنور الذي يسطع منه فيصل للحاضرين، ويؤثِّر في قلوبهم ونفوسهم ونيَّاتهم وأعمالهم.

• الوقار والهيبة: الوقار أدب من آداب النبيين والمرسلين، والهيبة عطيَّة ربَّانية يؤتيها الله من يشاء، وكانت هيبة الشيخ واضحة في دروسه، فكان الطلَّاب كأنَّما على رؤوسهم الطير، إجلالًا واحترامًا، وكان الأمر يتعدَّى الإنصات إلى العمل، فمثلًا في كلِّيَّة الآداب بمجرَّد قدوم الشيخ ينقسم الطلَّاب والطالبات لفرقتين إحداهما للذكور والأخرى للإناث من تلقاء أنفسهم، ودونما توجيه من أحد، ويحاولون بمختلف توجُّهاتهم الالتزام بأمور الشرع خلال الدرس حبًّا واحترامًا ومهابة للشيخ.

• حسن استثمار المناسبات المختلفة لترسيخ النفع: كان الشيخ في كلِّيَّة الشريعة وغيرها يحوِّل الوقائع المختلفة إلى مناسبة إفادة ونفع، فيخرج عن محور الدرس الأساسي إن اقتضى الأمر ويقصُّ من قصص الأولياء والعلماء والصالحين، أو يورد فروعًا علمية تتعلَّق بتلك الواقعة، أو يوجِّه لبحث، وما إلى ذلك. ومن توفيق الله تعالى له أنَّه عندما كان يدرِّس في قسم اللغة العربية وفيها من الطلَّاب النصارى الكثير، طلب في قسم الحفظ حفظ سورة مريم، وكان في هذا تأليف لقلوبهم، وحسن إرشاد، وثمَّة من كانت بداية دخولهم للإسلام بسبب ذلك، والسعيد من وفقه الله تعالى.

طلَّابه: يقول الحافظ ابن عبد البرِّ:

هـذه آثارنـا تـدلُّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ولئن ترك سيِّدي الوالد رحمه الله تعالى ورضي عنه إرثًا علميًّا عظيمًا يتمثَّل في مؤلَّفاته التي سارت بها الركبان، فإنَّه قد ترك إرثًا علميًّا بشريًّا يتمثَّل في طلَّابه الكثر الذين رووا أفئدتهم من معين علمه وسمته، وسأذكر أبرزهم ممَّن اختصُّوا في الحديث الشريف، كأمثلة فقط، وإلَّا فإنَّهم لا يُحصَون، والمتميِّزون منهم كثر جدًّا:

الدكتور بديع السيِّد اللحَّام، عميد كلِّيَّة الشريعة في جامعة دمشق.

الدكتور علي أسعد، الأستاذ في كلِّيَّة الشريعة بجامعة دمشق.

الدكتور صادق درويش، المدرِّس في مجمَّع الفتح الإسلامي.

الدكتور عمر نشوقاتي، المدرِّس في مجمَّع الفتح الإسلامي.

الدكتور نجم الدين عيسى، المدرِّس في كلِّيَّة الإلهيَّات في جامعة يالووا.

ابنته الدكتورة راوية عتر، المدرِّسة في كلِّيَّة الشريعة بجامعة دمشق.

الدكتورة منى العسة، رئيس قسم علوم القرآن والسنَّة بجامعة دمشق.

الدكتورة مؤمنة الباشا، المدرِّسة في كلِّيَّة الشريعة بجامعة دمشق.

صفاته الخَلْقية

أوتيَ الشيخ بسطةً في جمال الهيئة والخلْق كما أوتيَ البسطة في العلم، واجتماع هذين من النوادر، وقد آتاه المولى قبسات من أنوار جدِّه السيِّد الأكرم صلَّى الله عليه وسلَّم، فكان من يراه يقرُّ بأنه أحسن وأجمل من رأى، ومن صفاته أنَّه كان أبيض أزهر اللون، ذا شعر ليس بجعد ولا سبط، ربعة إلى الطول أقرب، شثن الكفين، ضخم الكراديس؛ أي: ضخم رؤوس العظام والمفاصل، في صوته صحل، بهيُّ المحيَّا، عَلَتْه أنوار المتَّقين وسمة الصالحين الربَّانيين.

صفاته الخُلُقية

حدَّة الذهن: وهب الله الشيخ ذكاء حادًّا، وذاكرةً قويَّة، وبديهةً حاضرة، والله سبحانه يزيد في الخلق ما يشاء، وقد كان ذلك واضحًا جليًّا منذ نعومة أظفاره، وكان بدايةً لإجابة دعاء والده الوليّ الصالح ووفاءً بنذره، فكان عميق التحليل للمسائل، سريع الحفظ لما يُطلب منه حفظه، متفوِّقًا في نجاحاته في سنيّ دراسته كلِّها منذ الابتدائية تفوُّقًا ملحوظًا، ينال الرتبة الأولى في كلِّ المراحل، وقد حفظ القرآن الكريم في سنٍّ مبكِّرة، أمَّا العمق في تحليل الأفكار فقد ظهر أوَّل ما ظهر في

أطروحته للعالِمية «الدكتوراه» وعنوانها «طريقة الترمذي في جامعه، والموازنة بينه وبين الصَّحيحين»،[1] فتقسيم الأبواب والفصول فيها غدا قدوة للباحثين في مناهج المحدثين، وذلك الإبداع نلمسه في تآليفه كلِّها.

نقاء القلب: يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، ويقول النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عندما سئل: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كلُّ مَخْمُومِ القلبِ، صَدُوقِ اللِّسانِ» ، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ».[2] إنَّني لو أقسمت أنَّني ما رأيت قلبًا طاهرًا نقيًّا كهذا الموصوف في الحديث الشريف السابق مثل سيِّدي الوالد لما حنثت في قسمي. وكان قلبه مملوءًا بالحبّ للمسلمين والشفقة عليهم والرحمة بهم، ولم يعرف يومًا شيئًا اسمه الحقد أو الغلُّ أو الحسد؛ بل لا يحمل على أحد إطلاقًا مهما كان السبب ومهما آذاه، ومن الأمثلة الكثيرة جدًّا أنَّه مرَّة ذكر له من يشنِّع عليه فما كان منه إلَّا أن قال: «نحن نتعامل مع الله سبحانه وتعالى».

ومن ثمار ذلك أنَّه كان دائم النصح لعباد الله عامَّة، ولأرحامه وطلَّابه خاصَّة؛ بل يتأثَّر لحالهم، يفرح لفرحهم ويغتمُّ لحزنهم.

الإحساس المرهف: إنَّ ممَّا تميَّزت به شخصيَّة سيِّدي الوالد -كحال الكثير من أولياء الله الصالحين- رقَّة قلبه الطاهر، ورهافة شعوره، فتجد أنَّ نبعًا من المشاعر النبيلة والأحاسيس الرهيفة يسكن قلبه ويفيض على كيانه كلِّه، ولن أتكلَّم الآن عن خشوعه العظيم فله موضع آخرُ من هذه المقالة، إنَّما عن عواطفَ نبيلة تتبدَّى في كلِّ لحظات حياته وفي كلِّ المجالات، فهو المحبُّ محبَّة عظيمة لمشايخه وأصحاب الفضل عليه، وأوَّلهم شيخه الجليل سيِّدي الجدُّ الشيخ عبد الله سراج الدين، والمحبُّ محبَّة خالصة لأهل بيته، رؤوف بهم، حنون عليهم، محبٌّ محبَّة أبويَّة لطلَّابه، يهتمُّ بأمرهم من أعماق قلبه، ونفسه

١ طبعها سيِّدي الوالد بعد ذلك بعنوان: الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه والصّحيحين.

٢ سنن ابن ماجه، ٤٢١٦.

عامرة بالرحمة للمسلمين والرأفة بهم، سريع التأثُّر، سخيُّ الدمعة جدًّا، وكم من مرَّة رأيته يبكي تأثُّرًا لشدَّة وقعت بمن يعرفه؛ بل إنَّه بكى لحال من لا يعرفه قط إنَّما سمع به، وكان ذلك الشخص ممَّن ابتُلِيَ بالمعاصي فبكى إشفاقًا عليه! وأمثلة ذلك كثيرة في حياته.

الإخلاص: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البيّنة: ٥]، وَقالَ تَعَالَى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧] وقال سيّد الأوَّلين والآخرين صلَّى الله عليه وسلَّم: «إنَّما الأعمال بالنيَّات.. الحديث»، إنَّ الإخلاص الذي هو سرُّ قبول الأعمال عند ربِّ العالمين غاية عظمى ينشدها العلماء والأولياء والصلحاء، ويجاهدون النفس حتَّى يصبح الإخلاص سجيَّة لها، وقد كان هذا شأن سيّدي الوالد، ولئن عرَّف بعضهم الإخلاص بأنَّه دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلِّها، فإنَّ هذه المراقبة كانت ديدن والدي في حياته كلِّها، يشهد بذلك ما عرفناه نحن أهل بيته من استواء سرِّه وعلنه؛ فهو الذي كان يبتغي وجه الله تعالى من عمله كلِّه، وهو الذي قد جعل حياته كلَّها بين علم نافع وعبادة خاصَّة، وهو الذي ترك الكثير ممَّا عُرِض عليه من أعمال برواتبَ مغرية خارج سوريا كي ينفع المسلمين في بلده، وهو الذي كان يدعو لطلَّابه في سجوده، وهو الذي كان دائمًا ينبّهنا وينبّه طلَّابه لأهمِّيَّة الإخلاص في جوهر العلم والعمل، وكان كثير الدعاء أن يهبه الله تعالى الإخلاص، ويأمرنا بذلك مشيرًا إلى أنَّ الدعاء بذلك مقبول بإذن الله تعالى، ولنيل رتبة الإخلاص كان يخفي كثيرًا من عمله كي يكون خالصًا لله تعالى حتَّى عنَّا أهل بيته، ثمَّ نعرفه بعد ذلك ممَّن لهم صلة بذلك العمل، وكم من عمل له بقيَ خفيًّا يعلمه المولى سبحانه وتعالى وحده.

التواضع: إنَّ التواضع وهضم النفس خلق أصيل من أخلاق الأولياء، وقد كان هذا الخلق الأصيل من مزايا سيّدي الوالد المعروفة عنه، فكان نادرًا ما يتكلَّم عن نفسه، وكان حريصًا على البعد عن المظاهر في المجالات كلِّها، وكان -مع ما آتاه الله تعالى من الهيبة- قريبًا من الناس شفوقًا عليهم، يعامل كبيرهم كأخ له، وصغيرهم

كولد له، وكان يقرِّب المساكين والفقراء ويدنيهم ويساعدهم ما أمكنه، سواء مادِّيًّا أو في أمور أخرى ضمن ما يستطيعه، والأمثلة في ذلك تفوق الإحصاء، وكان في منزله -إن كان وقته خاليًا من أعبائه العلمية الكثيرة- يساعد أهله، وقد تحقَّق فيه قول سيِّد الأنبياء في ذلك: «ما تَواضَعَ عبدٌ إلَّا رفعه الله»؛ فجعل الله له في القلوب أكبر القبول، وآتاه عزًّا لم ينله أصحاب الدثور والقصور.

الكرم: ممَّا أحفظه عن سيِّدي الوالد: (لا يكون ولي لله إلَّا كريمًا)، وقد كان رضي الله عنه في غاية السخاء والجود واصطناع المعروف، وكلامنا هنا عن الكرم المادِّي؛ لأنَّ عطاءه المعنوي من العلم والنفع قد ملأت أخباره الآفاق، وكان كثير العطايا لذوي الحاجة سواء كانوا أقاربه أو غرباء عنه، وكان يخصُّ بعطائه طلَّاب العلم، وكان يشفق عليهم كثيرًا؛ لأنَّ غالبهم يمنعه طلب الرزق من الجدِّ والاجتهاد في طلب العلم؛ بل لا أبالغ إن قلت إنَّ هذا كان يؤرِّقه؛ لذلك كان يحاول مساعدتهم مادِّيًّا ما أمكنه؛ كي يتفرَّغوا لطلب العلم وأعبائه، وأخباره في هذا مشهورة، ولأنَّه كان يحبُّ إخفاء عمله بغية كمال الإخلاص فكثير من وقائع ذلك لا نعرفه إلَّا من قِبَل غيره؛ وكان من ذلك أنَّه بعد وفاته أخبرتنا جمعيَّة الفرقان في دمشق أنَّه كان شهريًّا يلتقي بموظَّفها ويتبرَّع بمبلغ من المال، وكنوع من العرفان نظموا وقفًا باسمه وثوابه لأجله باسم (وقف الأستاذ الدكتور نور الدين عتر) لطلَّاب الحديث الشريف في مرحلة الدراسات العليا، فنسأل الله القبول.

الهيبة: إنَّ اجتماع ما نحسبه ظاهرًا من المتناقضات في شخصيَّة سيِّدي الوالد كان سمة عامَّة وموهبة ربَّانيَّة، فرغم تواضعه ولطفه ورفقه آتاه الله هيبة وجلالًا؛ وهذا عطيَّة ربَّانيَّة يؤتيها الله سبحانه لمن تمكَّن جلال الله في قلبه، فوهبه سبحانه مكانة رفيعة في النفوس، ومنزلة سامقة يُعظِّمه من يراه ويُجلُّه. وأذكر أنَّني لمَّا أكرمني الله بحضور محاضراته في الدراسات العليا بجامعة دمشق، كنت أتمثَّل في نفسي بما قيل في الإمام مالك من أبيات، وهي:

يدع الجواب ولا يراجع هيبة ... والسَّائلون نواكس الأذقان
نور الوقار وعزُّ سلطان التُّقى ... فهو المهيب وليس ذا سلطان

التقوى: كان من وصايا سيِّدي الوالد التي أكَّدها علينا مرارًا وتكرارًا وصيَّته بالتقوى، وفي مرضه الأخير كان يقول لنا: «عليك بتقوى الله فإنَّها ما جاورت قلب امرئ إلَّا صلح أو إلَّا وصل». ولم تكن وصيَّة لنا فحسب؛ بل كانت منهج حياة له، بما شملته من كيانه كلِّه ومن مجالات حياته كلِّها؛ فهو ذو القلب النقيِّ، والفؤاد المخلص، واللسان العفيف، والجسد العامل في طاعة الله تعالى، وهو الذي يبتغي وجه الله في كلِّ ما يأتي وفي كلِّ ما يذر.

وكانت طمأنينة نفسه بالتوجُّه للحقِّ تعالى صلاة ودعاءً وذكرًا، وكان التزامه بالسنن الرواتب كالتزامه بالفرائض، مع مواظبته على السنن الأخرى، فقد واظب سنين طويلة من عمره على صيام يومي الإثنين والخميس، ومعروف إصراره على القيام في الصلاة رغم الرخصة في سنوات المرض الأخيرة.

وضُرِب المثل بصبره على قضاء الله وقدره يوم توفِّيَ ولده البكر القريب لقلبه وروحه «الدكتور محمَّد مجاهد عتر»، فاستسلم لله بالكلِّيَّة، وفوَّض الأمر لربِّ البريَّة، وكان في ذلك خير قدوة تؤتسى، وعُرِف كذلك ورعه، وزهده في الدنيا، ونظرته لها كمَرْكَبٍ يوصل للآخرة.

تصوُّفه: لعلَّ هذا المصطلح هو من أكثر المصطلحات التي ظُلمت، وأُثير حولها شبهات كاذبة ودعاوى زائفة، علما بأن أنَّ المقصود الأهمَّ من التصوُّف الحقيقيِّ النقيِّ هو الإخلاص في عبادة الله عزَّ وجلَّ وتزكية النفس وتهذيبها حتَّى تصل إلى مقام الإحسان، دون الوقوع في أدنى مخالفة شرعية لما جاء في الكتاب والسنَّة، وفي هذا يقول إمام الصوفية الجنيد:[1] «علمنا مضبوطٌ بالكتاب والسنَّة، من لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ولم يتفقَّه لا يُقتدى به».[2]

١ الجنيد بن محمَّد بن الجنيد، أبو القاسم، الخزَّاز ويقال القواريري، البغدادي المولد، سمع الحديث، ولقيَ العلماء، ودرس الفقه، ثمَّ اشتغل بالعبادة ولازمها، حتَّى صار شيخ زمانه وفريد عصره في علم الأحوال والكلام على لسان الصوفية، وله أخبار مشهورة، وكرامات مأثورة (ت ٢٩٨هـ). تاريخ بغداد: ٧/ ٢٤١، وطبقات الصوفية، لأبي عبد الرحمن السلمي محمَّد بن الحسين، ١٥٥.

٢ تاريخ بغداد ٧/ ٢٤٣.

يقول الطوسي:[1]

«إنَّ طبقات الصوفية اتَّفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث في معتقداتهم، وقبلوا علومهم، ولم يخالفوهم في معانيهم ورسومهم.. ثمَّ إنَّهم من بعد ذلك ارتقوا إلى درجاتٍ عالية وتعلَّقوا بأحوال شريفة من أنواع العبادات وحقائق الطاعات.

فأوَّل شيء من التخصيصات للصوفية: ترك ما لا يعنيهم وقطع كلِّ علاقة تحول بينهم وبين مطلوبهم ومقصودهم؛ إذ ليس لهم مطلوب ولا مقصود غير الله تعالى.

ثمَّ إنَّ لهم آدابًا وأحوالًا شتَّى فمن ذلك: القناعةُ بقليل الدنيا عن كثيرها، والاكتفاءُ بالقوت الذي لا بدَّ منه، والاختصار على ما لا بدَّ منه من مِهنة الدنيا، وترك العلوِّ والترفُّع، والشفقة على الخلق، والتواضع للصغير والكبير، والإيثار في وقت الحاجة إليه..».[2]

وبناءً على ما سبق نجد أنَّ التصوُّف تحقُّقٌ بمقام الإحسان: «أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك».[3] ولأجل هذا الهدف النبيل والأخذ بأيدي الناس للتحقُّق به كانت الطرق الصوفية ومشايخها الذين كانوا للناس معلِّمين مرشدين،

---

١ عبد الله بن علي الطوسي، أبو نصر السرَّاج، العالم العابد الزاهد، شيخ الصوفية مع الاستظهار بعلم الشريعة وطريقة السنَّة، له كتاب اللمع في التصوُّف، (ت ٣٧٨هـ)، شذرات الذهب، ٣/ ٩١، الأعلام، ٤/ ١٠٤.

٢ اللمع في التصوُّف، ١٠، ١١، ١٢، باختصار.

٣ وها هنا سؤال: إذن ما سرُّ ما يُنسب للصوفية من بدع وأخطاء؟ الجواب: ما تكلَّمنا عنه هو التصوُّف الحقيقيُّ الصحيح النقيُّ، ولكنْ «هناك تصوُّفٌ منتحلٌ زائف انتحله قديمًا فئام من الناس، أشربوا تعاليم الباطنية الحلولية، وتدثَّروا بدثار الصوفية، اجتذابًا للعامَّة وخداعًا وتلبيسًا، ودسُّوا في التصوُّف مقالاتهم الشنيعة في الدين إضلالًا للمسلمين، وقد كشف خُبْأهم وفنَّد مزاعمهم وأبطل تصوُّفهم كثير من الأئمَّة، وهناك أيضًا تصوُّفٌ محترف مزوَّر، هو نتيجة انتساب بعض الناس إلى الصوفية زورًا، واتِّخاذهم إيَّاها سمةً وحرفة، ثمَّ توارثوا فيما بينهم بدعًا وشعارات زائفة يبرأ منها التصوُّف وأعلامه. وإحقاقًا للحقِّ، وإنصافًا للصادقين: يجب أن لا يُحَمَّل الصوفية أوزار أولئك الأدعياء المبطلين، وأن لا يطلق القول في ذمّ التصوُّف والصوفية، بل يُعْطَى كلُّ فريقٍ حقَّه من المدح أو الذمّ، ومن الترغيب أو التحذير، دون تعصُّب أو تَحَيُّف، ويجب أن يميَّزَ الصوفي العالم الحقيقيُّ من الجاهل اللصيق الذي يسيء بأخطائه وبُعْده عن العلم إلى الصوفية جميعهم. بالمقابل هناك أقلامٌ مغرضة تكتب عن التصوُّف الحقيقيِّ عامَّةً بالثلب والذمّ، يرمون من ذلك إلى النيل من منبع التصوُّف الصافي، وهو الإسلام، كالذي نجده في كتابات المستشرقين. ومن المؤسف حقيقةً أن نجد بعض الكتَّاب العرب يقتفون أثر المستشرقين ويحذون حذوهم في الغضِّ من شأن التصوُّف والحطِّ منه -بخاصَّة في العهد العثماني- دونما تمييز بين تصوُّفٍ حقيقي، وتصوُّفٍ منتحَلٍ أو مزوَّر، أو تصوُّف جهلة لا يفقهون من معنى التصوُّف شيئًا.

وأطبَّاء حاذقين، والطبيب الحاذق يصف لكلِّ إنسان ما يناسبه؛ إلَّا أنَّ طبَّهم خاصٌّ بالأرواح، مستمدٌّ من إلهام ربِّ البريَّات سبحانه وتعالى.

وسأكتفي بهذه النبذة ههنا؛ لأنَّ الغرض ما يتعلَّق بسيِّدي الوالد؛ الذي كان كما أسلفت في حياته متمثِّلًا قيم الإحسان والتزكية (التصوُّف الحقيقيُّ) خير تمثُّل، وكان كذلك منتسبًا للطرق الصوفية العليَّة منذ صغره، وكان للبيئة النقيَّة التي نشأ فيها أعظم الأثر في ذلك، فجدُّه العظيم العارف بالله العلَّامة الشيخ نجيب سراج الدين كان مأذونًا بالطرق الصوفية كلِّها، وله اختصاص عظيم بالطريقة الرفاعية، وخاله وشيخه العلَّامة الجليل سيِّدي الجدُّ الشيخ عبد الله سراج الدين كذلك، وقد أذنا له بما عندهما من الطرق.

أمَّا والده سيِّدي الشيخ محمَّد عتر فكان له اختصاص عظيم بالطريقة الرشيدية (فرع من الإدريسية)، وكان مجلس الذكر يقام في منزله في «حارة البستان، حيِّ القصيلة» كلَّ ثلاثاء.

وقد أخذ من هؤلاء الأعلام الإجازة بالطرق كلِّها مع اختصاص بالرفاعية والرشيدية، إلَّا أنَّه قد غلب عليه اشتغاله بالعلم تعلُّمًا وتعليمًا، وذلك بحسب توجيهاتهم وإرشاداتهم، وقد أجاز عددًا قليلًا من الناس بأوراد الرشيدية، ولا أعلم أحدًا قد أجازه سيِّدي الوالد **بكلِّ ما عنده من الطرق** غير الأستاذة الفاضلة زوج تلميذه البار الدكتور نجم الدين عيسى وهي الآنسة المكرَّمة: (**رنا ربيع**) أسأل الله تعالى أن ينفع بها ويزيدها.

وقد كان لتصوُّف سيِّدي الوالد أبرز الأثر في دروسه وفي مؤلَّفاته، ففي دروسه يغلب عليه حال عظيم من حبِّ من يدرِّس حديثه صلَّى الله عليه وسلَّم وإجلاله وتعظيمه والشوق إليه، ويسعى للوصول إلى الهدف الأسمى من التعليم، وهو تقريب الطلَّاب من خالقهم سبحانه وتعالى وحبيبه صلَّى الله عليه وسلَّم، من خلال النصائح الإيمانية والمواعظ الإرشادية مهما كان موضوع ذلك الدرس، ومن خلال قصص السلف الصالح للاقتداء بهم.

أمَّا المؤلَّفات فقسم منها -وهو أقلُّ من غيره عددًا- موضوعه الأساسيُّ ما يتعلَّق بقلب المؤمن وحبِّه لسيِّد الخلق حبيب ربِّ العالمين صلَّى الله عليه وسلَّم، مثل «حبُّ الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم من الإيمان» و«النفحات العطرية من سيرة خير البريَّة».

والقسم الآخر الذي يعتبر اختصاصيًّا بحتًا في علوم الحديث رواية ودراية قد بثَّ فيه إشارات عميقة في التزكية، مثلًا يقول في كتابه القيِّم: «إعلام الأنام شرح بلوغ المرام» بعدما ذكر صيغ التشهُّد المتعدِّدة: (ونرى هنا أن يعمل بالكلِّ، لما أنَّ الأمر واسع كما ذكر الإمام الشافعي، وفي **هذا التنويع عون على الحضور أيضًا**).

خصائص مدرسته العلمية

أوَّلًا: ريادة نهضة علمية في علوم القرآن والحديث: أكرم الله تعالى سيِّدي الوالد أن قسم له قيادة نهضة علمية عظيمة في علوم الوحيين: القرآن الكريم والحديث الشريف، وسأبدأ بعلوم الحديث لأنَّه أولاها زيادة وقت وجهد واختصاص؛ بل إنَّ حبَّه لها بلغ منه كلَّ مبلغ؛ فسمَّاني -ابنته الوحيدة- راوية؛ تيمُّنًا برواة حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، فأرجو من الله عزَّ وجلَّ ألَّا يحرمني فأل هذا الاسم، ويمنَّ عليَّ بالإخلاص والقبول.

وقد تميَّز جهد سيِّدي الوالد في خدمته **علوم الحديث رواية ودراية** بأنَّه أشرق في العالم العربي والإسلامي بدرًا مكتملًا؛ فمنذ تأليف أطروحته لنيل درجة «العالِمية» الدكتوراه تبيَّن لأصحاب الاختصاص أنَّهم أمام عالم جديد ذي عبقريَّة فذَّة، وكان ذلك الكتاب «طريقة الترمذي في جامعه، والموازنة بينه وبين الصَّحيحين»[1] فتحًا مبينًا في التآليف في مناهج المحدثين وما قاربها؛ بل إنَّ تبويبه لها غدا نموذجًا احتذاه الكثيرون ممَّن بعده.

ونستطيع القول: إنَّ جهوده في هذا الشأن قد توزَّعت على محاورَ عدَّة:

١ طبعها سيِّدي الوالد بعد ذلك بعنوان: الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه والصّحيحين.

• التدريس في الجامعات.

• التدريس في المساجد.

• التدريس في منزله.

• المؤلَّفات المفيدة من كتب وأبحاث ومقالات وأوراق بحثيَّة في المؤتمرات والندوات.

• تحقيق المخطوطات القيِّمة.

• مشاريع علمية نافعة.

بالنسبة لتدريسه في الجامعات فقد كان جهده الأكبر منصبًّا على كلِّيَّة الشريعة في جامعة دمشق، وقد أعطاها عقودًا من عمره، فمدَّة تدريسه فيها من عام ١٩٦٧م إلى عام ٢٠١٨م، ولم يتغيَّب حتَّى في الظروف الصعبة، والفضل له في إنشاء الدراسات العليا لقسم علوم القرآن والحديث، وتابع طلَّابه خير متابعة مشرفًا بصفة رسميَّة أو غير رسميَّة، ومناقشًا ومرجعًا يعودون إليه فيما يشكل، وكان جلُّ إقامته في دمشق الفيحاء -التي أحبَّه أهلها وأحبَّهم كذلك حبًّا جمًّا- لأجل القيام بأعباء هذه الكلِّيَّة، وكم كان يتخلَّى عن بعض الدعوات لمؤتمرات مهمَّة لأنَّه يرى القيام بواجباته تجاهها أولى.

درَّس الشيخ أيضًا في كلِّيَّة الآداب قسم اللغة العربية في جامعتي دمشق وحلب، وألَّف لأجل طلَّابهما كتابه القيم: «الحديث الشريف والدراسات الأدبية».

كما درَّس في مجمَّع «أبو النور أو مجمَّع الشيخ أحمد كفتارو» في القسم الجامعي وفي الدراسات العليا، وكانت وقتها تابعة لجامعة أمِّ درمان في السودان، ودرَّس في «مجمَّع الفتح الإسلامي» وكلاهما في دمشق، وقد كتب المولى سبحانه له أن تنير شعاعات نوره كافَّة أرجاء العالم العربي والإسلامي، فدعي سيِّدي الوالد مرَّات كثيرة أستاذًا زائرًا ومحاضرًا ومناقشًا للرَّسائل في كلِّيَّات الشَّريعة وأصول الدِّين في جامعات كثيرة في العالم العربي والإسلاميِّ؛ كجامعة الإمام الأوزاعيِّ (في لبنان)،

وجامعة (الكويت)، وجامعة ندوة العلماء (في الهند)، وكلِّيَّة الدِّراسات الإسلامية والعربية بدبي (في الإمارات العربية المتَّحدة)، وجامعة مَرْمَرة في إسطنبول (في تركيا)، وجامعة أمِّ القرى (مكَّة المكرَّمة)، وجامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلامية بالرياض، والجامعة الإسلامية (بالمدينة المنوَّرة)، وبعض مؤسَّسات الوقف العلميِّ الإسلاميِّ في إسطنبول، وغير ذلك، وزار قطر والإمارات والجزائر وغيرها مدرِّسًا.

وأمَّا بالنسبة للمساجد فقد درَّس في عدد من مساجد دمشق وحلب، وكان لدمشق الحظُّ الأوفى بحكم إقامته فيها؛ فدرَّس في جامع نافذ أفندي بمنطقة المهاجرين في أواخر الثمانينات «شرح النخبة» لابن حجر العسقلاني، ودرَّس في جامع ظبيان في التسعينات «شرح علل الترمذي»، وفي جامع الشمسية بدمشق، وجامع الرشيد بحلب درَّس «إعلام الأنام شرح بلوغ المرام» منذ أوائل الألفية الثالثة ٢٠٠٢م حتَّى ختمه في جامع الشمسية عام ٢٠١٠م تقريبًا، ودرَّس كذلك في الجامع الأموي بدمشق «موطَّأ الإمام مالك» برواية محمَّد بن الحسن الشيباني.

وأبى هذا العالم العاشق للعلم إلَّا أن يصنع من بيته منارة هدي كذلك، فكان هنالك دروس مستمرَّة في منزله بدمشق وكذلك في حلب يؤمُّها طلَّابه وأحبابه.

وأمَّا مؤلَّفاته: فإن كان مطلعها (الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه والصحيحين) فإنَّ درَّتها هو (منهج النقد في علوم الحديث)، وقد كتبت بحثًا عنه، وواسطة عقدها (كتاب إعلام الأنام شرح بلوغ المرام)، هذا الكتاب الجليل الذي شرح فيه أحاديث بلوغ المرام بطريقة معاصرة من حيث اللغة والصياغة، وقدَّم آراء الأئمَّة الأربعة التي استندت إلى الهدي النبوي، وشرح غريب الحديث ومعناه مجملًا، مع دراسة إسنادية مهمَّة، فتوسَّع كما ينبغي في الجانب الحديثي الفنِّي رواية ودراية، وفي فقه الحديث وبيان توجيهاته، ودقَّق النقل لآراء الفقهاء في دلالة الحديث ومعانيه.

وللشيخ أبحاث ومقالات ماتعة نافعة في المجلَّات المعتمدة المختلفة، كما قدَّم بحوثًا وأوراقًا بحثيَّة شارك فيها في مؤتمرات عالميَّة كثيرة يصعب إحصاؤها، وكان من أبرزها:

- مؤتمرات الفكر الإسلامي في الجزائر.
- مؤتمر أعلام الإسلام في الكويت.
- مؤتمر الهدي النبوي في أبو ظبي.
- مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بجامعة الزرقاء في الأردن.
- مؤتمر السنَّة النبويَّة بين الواقع والمأمول، في الأزهر الشريف.

وغير ذلك، وكذلك عدد كبير من الندوات والملتقيات العلمية.

وأمَّا تحقيقاته فقد كانت لكتب مهمَّة ومصادر أصيلة في علوم الحديث، باكورتها (علوم الحديث لابن الصلاح)، وقد تميَّز تحقيقه باهتمامه باختيار النسخ ذات القيمة العلمية العالية، وخدمة الكتاب المحقَّق على أحسن وجه، وتمهيد سبيل الانتفاع من الكتاب، وتسهيل الوصول إلى مكنوناته، وتتميم فوائده بالتعليقات العلمية اللازمة.

وأمَّا المشاريع فمنها ما هو متعلِّق بخدمة التراث الأصيل، بتحقيق كتب علمية قيِّمة، كتوزيع المفهم على طلَّاب الماجستير، ومنها ما يتعلَّق بإحياء سنَّة الأقدمين في حفظ الحديث الشريف سندًا ومتنًا، فأشرف على مشروع حفظ الحديث النبويِّ الشَّريف من مصادره الأولى سندًا ومتنًا وشرحًا، وقد أثمر هذا عن عدد من الحافظات لحديث النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في (المدرسة النورية) والعمل فيها يتلاحق، والخرِّيجات يزددن عددًا، فنسأل الله القبول.

وقد أقام سيِّدي الوالد أيضًا مجالس للإقراء للإجازة فقط، لمن لا يسعفه الوقت للحفظ، ومن ذلك مجالسه في معهد الفتح، وبعضها في منزله.

وأمَّا **بالنسبة للتفسير وعلوم القرآن** فمن خلال أمرين:

التدريس الجامعي، والتأليف النافع.

فقد درَّس سيِّدي الوالد التفسير وعلوم القرآن في كلِّيَّتي الشريعة والآداب بجامعتي دمشق وحلب، وتميَّزت محاضراته ودروسه بما أسلفته في موضعه، مع

مزيد اهتمام بما يتطلَّبه الكلام عن مراد الحقِّ جلَّ جلاله في محكم تنزيله، وربط حياة المستمعين بما يستفاد من تأويله.

وصنَّف الكتب النافعة في هذا المجال، ومن أبرزها «علوم القرآن» الذي جعل فيه هذا العلم الجليل أقرب منالًا، فحرَّر فيه التعريفات، وبسط الصياغة اللغوية، وأتى بترجيحات لمسائلَ لم يسبق فيها، كما صنَّف كتبًا في تفسير بعض السور، وفي تفسير بعض آيات الأحكام التي خصَّها بأكثر من كتاب؛ فألَّف في آيات الأحكام في سور النساء والمائدة والأنعام والأعراف، لأنَّها كما قال:[1] «آيات تتناول بنية المجتمع في تقرير حقوق الإنسان الأساسية، لا سيَّما بالنسبة للأطفال والأيتام والنساء، هؤلاء الضعفاء الذين ضاعوا في مفاهيم المجتمع الجاهلي، وهم عرضة للضياع في أيِّ مجتمع تسيطر عليه المادية، كما تتناول بناء المجتمع المصغَّر: الأسرة، وقضايا علاقة المجتمع المسلم بغيره في السلم والحرب، وأحكامًا ماليَّة في المعاملات والزكاة، وقضايا الغذاء وما يحلُّ منه وما يحرم، وهي قضايا الحياة وإمداد الحياة».

وقد راعى في إعداد كتبه في التفسير طريقةً تُعلِّم قارئها كيفيَّة التفسير ومنهجه، باتِّباع الخطَّة التي بيَّنها علماء أصول التفسير، ومراعاة الأولويَّات في ترتيب فقرات التفسير، وراعى في بيان المعنى أو الحكم التنبيه على القاعدة التي استخدمت في تفسير المعنى أو استخراج الحكم أو الفائدة، وأخذ بالتثبُّت من نسبة الحكم إلى المذهب الذي ينسب إليه في اختلاف أئمَّة العلم، مع بيان الأصول التي يعتمد عليها كلُّ مذهب، وكيف فسَّر الآية حتَّى تمَّ له استخراج الحكم من الآية.

كما تميَّز عمله أنَّه راعى الأولويَّات في ترتيب المعلومات بتقديم المناسبة، فأسباب النزول، ثمَّ الدراسات اللغوية والقراءات، ومن ثمَّ شرح المعنى والاستنباط، وتميَّز بالدقَّة في توزيع المعلومات على الفقرات التي تتضمَّنها، وانسجام المعلومات الواردة في الفقرات مع بعضها بحيث ينسجم ما يختاره في المناسبة وأسباب النزول والمفردات والقراءات والإعراب مع تفسير المعنى ثمَّ مع الاستنباط.

١ في مطلع كتابه آيات الأحكام تفسير واستنباط، ٥.

واهتمَّ بالكلام على الشرط المأثور في أسباب النزول والتفسير صحَّة وضعفًا، وجرحًا وتعديلًا.

وهكذا فقد وُفِّق لتأليف مؤلَّفات نافعة بإذن الله تعالى، كُتِب لها القبول، وقُرّرت مناهج في الجامعات.

ثانيًا: الأصالة وصيانة التمذهب: إنَّ العلوم الشرعية أصيلة أصالة الوحيين كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنَّة نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وميزة العلوم الشرعية المتفرِّدة دقَّتها البالغة؛ لأنَّها مستمدَّة من منطلقات ثابتة لا تتحوَّل ولا تتبدَّل، وهي نصوص القرآن الكريم والسنَّة المطهَّرة، إلَّا أنَّ فهمها يكون بواسطة الاجتهاد، ولمن امتلك أدوات الاجتهاد، ورغم بداهة هذا الأمر إلَّا أنَّ أهمَّ أمرٍ لسلامة تطبيقه هو الالتزام بالمذاهب الأربعة؛ فطريق صيانة أصالة العلوم الشرعية إنَّما هو إحاطتها بسياج المذاهب الأربعة، وقد كان هذا أمرًا مسلَّمًا، إلَّا أنَّه ظهر ثمَّة دعوات في الآونة الأخيرة من حياة المسلمين كادت تسبِّب تصدُّعًا في كيفيَّة التوجُّه للقرآن والحديث، وهي الدعوات اللامذهبية؛ وفيها أمر عظيم من الفوضى العلمية والأخطاء المنهجية، وقد رسَّخ سيِّدي الوالد رحمه الله ورضي عنه المنهج العلمي الرصين في اتِّباع المذاهب الأربعة في دروسه وكذلك في مؤلَّفاته بطريقين:

الأوَّل: بيان خطأ أصحاب هذا التيَّار وشذوذاتهم بالدليل العلمي الواضح والحجَّة العلمية الساطعة.

الثاني: تأليف الكتب النافعة في الحديث التحليلي أو (أحاديث الأحكام)، ومن خلالها يتبيَّن كيفيَّة استمداد أصحاب المذاهب الأربعة اجتهاداتهم من القرآن الكريم ومن حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وما استنتج منهما من مصادر تشريعية، وكان استنباط الأحكام الذي قاموا به موزونًا بموازينَ علمية دقيقة، ونجد هذا جليًّا واضحًا في بضعة من كتبه، وأبرزها: «إعلام الأنام شرح بلوغ المرام»، يقول في مقدِّمته: «ولِمَا أنَّ الحاجة ماسَّة لتعميم نفع تلك المؤلَّفات، وقد عظمت الرغبات بشرح بلوغ المرام جميعه على نهج تلك الدراسات، لا سيَّما وقد شاعت في الناس مؤلَّفات حادت عن سواء السبيل، وحتَّم أصحابها على الناس قبول أفهامهم بما

فيها من سقيم وعليل، بغير حجَّة ولا دليل، إلَّا مجرَّد الزعم بأنَّ فهمهم هو السنن والسبيل، وأوغلوا في ذلك حتَّى شقُّوا وحدة أهل الإسلام، وحجروا على الناس ما اتَّسع من شريعة خير الأنام، وأغلقوا الباب على عمل العقول والأفهام، وسمُّوا كلَّ من لم يوافقهم مبتدعًا، ولغير السنَّة متَّبعًا، جاهلين أو متجاهلين أنَّه إن كان لهم دليل فللأئمَّة أدلَّة، وإن قبل أحد من الناس كلامهم فالأئمَّة محلُّ إجماع الأمَّة؛ لذلك كلِّه شمَّرنا عن ساعد الجدِّ ليكمل شرح بلوغ المرام شرحًا يلبِّي الحاجة، ويسهِّل السبيل لبلوغ الغاية، وزدنا فائدة القارئ بنصوص من مصادر الشروح القديمة للحديث، لنجمع إفادة القارئ من القديم والحديث، وعنينا باستدلالات الأئمَّة وبيان كيفيَّة أخذها من السنَّة، لتوسيع آفاق القرَّاء وتعارف وتآلف أهل الملَّة، كما أودعنا هذا الشرح فوائدَ وتوجيهات فريدة لا توجد في غيره تزيد الأمَّة نفعًا».[1]

ثالثًا: الابتكار والإبداع: إنَّ أصالة العلوم الشرعية وكون بنائها الراسخ إنَّما يقوم على استمدادها من وحي الله عزَّ وجلَّ في كتابه وسنَّة نبيِّه؛ لا يمنع الإبداع والتجديد والابتكار فيها، والتجديد المحمود هو الذي يزيد معلوماتها جلاءً ووضوحًا، ويجعلها أقرب منالًا وأرسخ فهمًا واستظهارًا، مع الإفادة من مستجدَّات التصنيف، وكذلك التدريس ومجالس العلم، وتشييد ما أسَّسه السابقون، مع الاعتراف بالفضل لأهل الفضل.[2]

يقول جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى: «وقد قالوا: ينبغي أن لا يخلو تصنيف من أحد المعاني الثمانية التي يصنِّف لها العلماء وهي: اختراع معدوم، أو جمع مفترق، أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطوَّل، أو ترتيب مخلَّط، أو تعيين مبهم، أو تبيين خطأ، كذا عدَّها أبو حيَّان، ويمكن الزيادة فيها».

وإن أمعنَّا النظر في مؤلَّفات سيِّدي الوالد نجد كلًّا منها قد احتوى بعض هذه المعاني؛ فأوَّل تصنيفه العلمي، وهو رسالته الدكتوراه، وكان بشهادة علماء الأزهر باب فتح جديد في الدراسات الحديثية؛ فهو أوَّل من استفتح الكلام في الصناعة

١ مقدِّمة الجزء الأوَّل من إعلام الأنام شرح بلوغ المرام، ٨.

٢ مبحث منهج النقد في علوم الحديث دراسة تحليلية، للكاتبة.

الحديثية ومناهج الأئمَّة، وكذلك الدراسات المقارنة من المعاصرين، فنجده تضمَّن معنى: اختراع معدوم، وجمع مفترق، وتفصيل مجمل.

وأيضًا إذا نظرنا إلى كتابه (منهج النقد في علوم الحديث) نموذجًا نجد أنَّه قد احتوى أربعة مقاصد من تلك المذكورة:

حسن الترتيب: إنَّ تقسيم مادَّة الكتاب تقسيمًا جديدًا من شأنه أن يعين القارئ على استخلاص ما يبتغيه بيسر وسهولة مع ربطه بالموضوعات الأخرى فيه، وسأنقل كلام مؤلِّفه في المقدِّمة مطوَّلًا حرفيًا ثمَّ أعقِّب، يقول: «إنَّه كتاب ينقل مسائل هذا العلم من التفرُّق إلى التكامل، ويأخذ بالقارئ من الجزئيَّات إلى النظريَّة الكاملة المتناسقة، التي تتآلف فيها أنواع علوم الحديث كافَّة، لتبدو في مجموعها منطلقة بتسديد وإحكام نحو الغاية المنشودة»، ثمَّ يقول: «لقد تتبَّع الكتاب بالسبر والاختبار كلَّ احتمالات القوَّة أو الضعف التي قد تطرأ على السند أو المتن أو عليهما معًا، ونظر فيما يتبع كلَّ واحد منها من أنواع الحديث، ثمَّ قسَّم الأنواع على أبواب رئيسة يختصُّ كلٌّ منها بركن من أركان البحث في الحديث، فتوصَّل بذلك إلى نتيجة مهمَّةٍ سيحسُّ بها القارئ في متابعة أبحاث الكتاب، ألا وهي شمول هذه الأنواع لجميع الاحتمالات التي أشرنا إليها جزئيًا وكلِّيًا؛ من البحث في رواة الحديث واحدًا واحدًا، إلى التحليل الشامل لمقوِّمات الحديث في السند والمتن جمعيها، وبذلك يصدر الحكم على الحديث معتمدًا على أصول نقدية دقيقة، لوحظ فيها المعنى مع المبنى، والمتن مع السند، مع الاستناد في ذلك إلى مقتضيات العقل والحسِّ.

وهكذا مهَّد كتابنا للدارس السبيل من أجل تكوين فكرة شاملة أو نظريَّة منتظمة لقواعد هذا العلم العظيم، تتبع فيها الفروع أصولَها، وتتَّضح الوجهة في كلِّ قاعدة من قواعده، وفي كلِّ مسألة من مسائله»، ويشرح المؤلِّف وجهة نظره في ابتكاره تقسيم الكتاب: «حاصل النظريَّة التي بنينا عليها نظام الكتاب وترتيبه يقوم على قضيَّة واحدة مسلَّمة، هي أنَّه لا بدَّ لكي يكون الحديث مقبولًا أن نعلم أنَّ روايه قد أدَّاه كما سمعه، وهذا لا يتحقَّق إلَّا إذا استوفى الراوي الشروط الكافية لذلك، فكان لا بدَّ أوَّلًا من بحث العلوم المتعلِّقة بالرواة.

ثمَّ إنَّ أخذ الراوي عن أساتذته له أحوال وأحكام، وكذلك تبليغه العلم تعتوره أحكام أيضًا، فكانت دراسة علم الرواية مكمِّلة لما سبق ومتمِّمة له.

وبما أنَّ الأحاديث قد وصلت إلينا بنقل رجال السند واحدًا عن الآخر حتَّى يبلغوا قائلها، فإنَّ من الواجب أن ندرس شروط القبول في السند والمتن، وذلك في تعريف الصحيح والحسن، ونبيِّن كفايتها لإثبات سلامة الحديث وأدائه كما سُمِع، كما نبيِّن أنَّ اختلال شيء منها يجعل الحديث ضعيفًا لما فيه من فقد المعيار الذي يثبت سلامة الحديث.

ومن ثمَّ فإنَّنا ننتقل على ضوء ما سبق إلى السبر والدرس لكلِّ جوانب الحديث، ونوضِّح احتمالات الضعف والقوَّة فيها، مع بيان حكم كلٍّ منها.

ونبدأ بدراسة أحوال المتن، فإنَّه المقصود من بحث الأسانيد، ثمَّ يأتي بعد ذلك البحث في تسلسل الإسناد وما يعرض له من اتِّصال أو انقطاع، ومن تعدُّد سند أو غير ذلك، ثمَّ نتبعه بالأنواع المشتركة بين السند والمتن، كالشاذِّ والمضطرب والمعلَّل».

تبيين خطأ: برز ذلك جليًّا في ردوده على المستشرقين؛ إمَّا في خاتمة الكتاب، أو في ثنايا الأبحاث المختلفة، كردِّه على زعم من زعم أنَّ الصحابة رضوان الله عليهم قد أخذوا عن كعب الأحبار ما نسبوه لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم!

تفصيل مجمل: وهذا كثير، مثاله ما نجده في فقرة أهليَّة التحمُّل مثلًا، وتصحيح المتأخِّرين وتحسينهم للأحاديث.

تهذيب مطوَّل: كمسائل كثيرة أعلن المؤلِّف أنَّه لن يذكرها لعدم تعلُّقها بالغرض الأصلي لهذا العلم، وهو تمييز المقبول من المردود، مثل تفاصيل كثيرة في طرق التحمُّل والأداء.

أهمُّ مؤلَّفاته

أبغض الحلال.

الاتِّجاهات العامَّة للاجتهاد، ومكانة الحديث الأحادي الصحيح فيها.

اتِّباع الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم من الإيمان.

أسس الدعوة وأخلاق الدعاة.

أصول الجرح والتعديل.

إعلام الأنام شرح بلوغ المرام.

ألفاظ الجرح والتعديل وحكمها.

الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه والصحيحين.

آيات الأحكام: تفسير واستنباط.

تعلَّمْ كيف تحجُّ وتعتمر.

تفسير سورة الفاتحة أمِّ الكتاب.

التفسير وعلوم القرآن.

جمع القرآن الكريم وتوثيقه في عهد النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

جوامع الإسلام من أحاديث سيِّد الأنام صلَّى الله عليه وسلَّم.

حبُّ الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم من الإيمان.

الحجُّ والعمرة في الفقه الإسلامي.

الحجُّ (بحث خاصٌّ لموسوعة الفقه الكويتية).

خبر الواحد الصحيح وأثره في العقيدة والعمل.

دراسات تطبيقية في الحديث النبوي (العبادات).

دراسات تطبيقية في الحديث النبوي (المعاملات).

دراسات منهجية في الحديث النبوي (الأسرة والمجتمع).

الدعوة والداعية إلى الإسلام.

الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي.

السنَّة المطهَّرة والتحدِّيات.

شرح علل الترمذي.

صفحات من حياة الإمام شيخ الإسلام الشيخ عبد الله سراج الدين.

علم الحديث والدراسات الأدبية.

علم المناسبات وأهمِّيَّته في تفسير القرآن.

علوم القرآن الكريم.

عمل المرأة واختلاطها.

فضل الحديث النبوي وجهود الأمَّة في حفظه.

فقه الإمام البخاري في جامعه الصحيح.

فكر المسلم وتحدِّيات الألف الثالثة.

في تفسير القرآن الكريم وأسلوبه المعجز.

في ظلال الحديث النبوي.

القرآن الكريم والدراسات الأدبية.

كيف تتوجَّه إلى العلوم والقرآن الكريم مصدرها.

لمحات موجزة في أصول علم علل الحديث.

ما هو الحجُّ الأكبر؟

ماذا عن المرأة؟

مجموعة من المصطلحات الفقهية (الموسوعة الكويتية).

محاضرات في تفسير القرآن الكريم.

محاضرات في علوم القرآن.

المسانيد ومكانتها في علم الحديث.

المعاملات المصرفية والربوية وعلاجها في الإسلام.

معجم المصطلحات الحديثية وتصديره.

مع الروائع والبدائع في البيان النبوي.

المغني في الضعفاء للذهبي.

من إبداع القرآن الكريم.

مناهج المحدثين العامَّة في الرواية والتصنيف.

منهج النقد في علوم الحديث.

نزهة النظر شرح نخبة الفكر.

النفحات العطريَّة من سيرة خير البريَّة.

النكاح في سنن النسائي، والأدب في سنن الترمذي.

هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك.

هدي النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الصلوات الخاصَّة.

علوم الحديث لابن الصلاح.

إرشاد طلَّاب الحقائق للنووي.

ختامًا: هذه المقالة موجز مختصَر عن العلَّامة الجليل والشيخ الكريم، رحمه الله تعالى ورضي عنه، وقد كتبتها بعد أن انكسفت شمس هذا العالم الربَّاني والولي العرفاني، وعظمت المصيبة بموته، وعرف الحزنُ سبيلَه لمحبِّي حديث الحبيب المحبوب بفقده؛ بل لقلوب كثير من الأمة الإسلامية، ولا يجبر القلب الكسير إلَّا عزاؤنا بوفاة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلمنا بما أعدَّ الحقُّ جلَّ جلاله

للعلماء العاملين والأولياء المتَّقين، ونسأل الله تعالى أن يحشرنا معه، ويجعله لنا قائدًا وشفيعًا يوم القيامة، إنَّه سبحانه سميع قريب مجيب الدعاء.

وكتبت

د. راوية نور الدين عتر المدرِّسة في كلِّيَّة الشريعة بجامعة دمشق

١٣ رجب ١٤٤١هـ، ٢٥ شباط ٢٠٢١م.